نقض نظرية الرواية عند لوسيان كولدمان ومساءلة لأطروحته[1]

من منظور السرديات التأريخية: نحو نظرية شعرية بديلة

أ. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
أستاذ النقد وتحليل الخطاب، مدير مدرسة الدكتوراه
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط العصرية

0.0. يطرح الوعي بالنظرية الأدبية في الفكر الأدبي وأدواته المنهجية، في راهن الدرس الأدبي بالجامعات العربية والحواضن الثقافية الحاضنة لها، جملة من القضايا والأسئلة، تمثل أحد التحديات المعرفية والعوائق الفكرية، التي تواجه البيئات العلمية العربية اليوم، في تقديم المعرفة ونقدها وإنتاجها، وفي تجذير تقاليد معرفية وعلمية في دراسة الأدب، تتأسس على تقديم معرفة صحيحة أو شبه صحيحة عن الأدب، وتستند إلى أدوات منهجية وعلمية في إنتاج هذه المعرفة. ولئن تعددت هذه التحديات وتنوعت العوائق، فإن قضية الوعي بالمعرفة الأدبية والعلم بمناهجها النقدية، تظل إحدى القضايا الأساسية المطروحة اليوم على الفكر الأدبي في أغلب البيئات الجامعية العربية، وهيئات بحثها العلمي وحواضنها الثقافية. وتمثل المُفكّر فيه، لدي مدرسي نظرية الأدب ومناهج تحليل الخطاب في وحدات التكوين ومدارس الدكتوراه، كما تشكل المشغل العلمي للباحثين في علم الأدب، في وحدات البحث ومخابره ومراكزه المتخصصة، وتأخذ حيزا مهما من اهتمام مخططي سياساتها البحثية، والمشرفين على تنفيذ استراتيجيات بحوثها العلمية.

1.0. لقد كان الانشغال بالنظرية الأدبية، والاشتغال بما طرحته من قضايا نقدية وأسئلة منهجية المدخل المعرفي لتطوير نظريتها والتحسين من كفاءة أدواتها المنهجية، فتاريخ النظرية الأدبية الحديثة، هو تاريخ لتحولاتها النقدية وإبدالاتها المعرفية، ففي كل لحظة من لحظات تطور النظرية الأدبية الحديثة، كانت المراجعة للطرح والمساءلة للمنهج مع الجيل الثاني أو الذين يلونهم، من كل نظرية نقدية تظهر ومنهج نقدي يختبر، الفعل المعرفي والمنهجي المحقق لتحولات النظرية الأدبية وإبدالاتها المعرفية : فأطروحة سوسيولوجيا الأدب نتاج لمراجعة الجيل الثاني من السوسيولوجيين، الناقض

---

[1] ـــ مثل هذا البحث مشاركتي في المؤتمر النقدي الثالث والعشرين، الموسوم بـ" نحو نظرية نقدية عربية" المنظم من طرف كلية الآداب جامعة جرش بالأردن، من 23 إلى 25 آذار ـــ مارس 2020، والذي لجل وقتها نتيجة لوباء كوفيد 19. وقد نشر البحث في كتاب المؤتمر.

للطرح السوسيولوجي التاريخي الذي كرسته أطروحة الدراسات الأدبية في البيئات العلمية، وأقامت سلطته النقدية المناهج السياقية. وأطروحة البنيوية النقدية، التي أحدثت الإبدال المعرفي والمنهجي في النظرية الأدبية الحديثة، بنقضها لأطروحة سوسيولوجيا الأدب، نتاج لجيل من النقاد البنيويين والأسلوبيين، الذين اتخذوا من منهج الدرس اللساني أداة ومنهجا لدراسة النص الأدبي، وأسسوا نظرية نقدية بنيوية وأخري أسلوبية بلاغية، كرستا سلطة للنص ومنهجه، وانشغلتا ب "الأدبي" مدخلا لمقاربة النص الأدبي، وأقامتا قطيعة نظرية ومنهجية مع السياق ومناهجه.

1.1.0. وستكون الشعرية والسيميولوجيا اللحظة الثالثة من المراجعات النظرية والمساءلات المنهجية، التي سيقوم بها بنيويون جدد هذه المرة، لأطروحة البنيوية والأسلوبية ووضع موقفهما من النص الأدبي موضعا للمساءلة النظرية والمنهجية. وهذه اللحظة من تطور النظرية النقدية، هي التي سيتم الانتقال فيها، مع هؤلاء من لانشغال ب "الأدبي" في النص وارتباطه ب"اللغوي" في أبعاده اللفظية(البنية) والتعبيرية(الأسلوب) والمعنوية (الدلالة)، إلي الاشتغال ب" الجمالي" في النص، وارتباطه ب"الخطاب" في بعديه: اللفظي التعبيري(الشعرية) والتفسيري الدلالي (السميولوجيا). وسيترتب عن هذا التفريق في تحديد" أدبية الخطاب"، بتمظهراتها اللفظية (شعرية الخطاب) وتجلياته الدلالية (سميولوجا الخطاب)، تدقيق لمجال الاختصاص وتعميق للمشغل، أغنت تعددية المشغل وحسنت من أدوات الاختصاص لاحقا. كما ستؤدي مراجعات اللحظة الثالثة، في تاريخ النظرية الأدبية ومناهجها، إلي الخروج التدريجي من سلطة خطاب بنيوبي " البنية" وأسلوبيي "الأسلوب" إلي رحاب سلطة شعريي الخطاب وسميولوجيي النص، مع بنيويين جدد (الشعريين، سميولوجيين) وستؤدي حواراتهم النقدية ومساءلاتهم المنهجية لأطروحة مع الجيل الأول من البنيويين والأسلوبيين، إلي قيام علم الأدب بفرعيه: التعبيري الشعري (الشعرية) والدلالي السميولوجي (السميولوجيا).

البيئات العلمية العربية والنظرية الأدبية: الوعي بالنظرية وتطبيقاتها.

0.1. ــ في أفق هذا الطرح بمشاغله البحثية والمنهجية، يسعي هذا البحث في مقاصده النظرية وأدواته المنهجية إلي الوقوف عند قضية من قضايا الفكر الأدبي، لم تأخذ بعد حظها من الاهتمام، بما فيه الكفاية في دوائر الدرس الأكاديمي ومشاغل البحث العلمي العربيين، تتعلق بتعميق الوعي النقدي بجانب من جوانب النظرية النقدية، يتصل بمسألة التأريخ للأنواع الأدبية عامة، وللأشكال السردية منها خاصة، متخذا من هذه المسألة موضوعا لنقض أطروحة وتوسيع مدارك أخري: نقض لأطروحة لوسيان كولدمان في تنظيره للرواية، وتوسيع للمدارك النظرية والمنهجية لأطروحة الشعرية

التاريخية عند جيرار جنت وأترابه من السرديين الأول[1] في تأريخهم للأدب، وتفسيرهم لظهور الأنواع والأشكال الأدبية. وهي قضية ترتبط بدورة إنتاج المعرفة الأدبية في البيئات العلمية العربية، وما تطرحه من قضايا وأسئلة على راهن الفكر الأدبي العربي في حواضنه البحثية والعلمية، وتتصل بمستويات احتضان هذه البيئات لتطور النظرية الأدبية وتطبيقاتها المنهجية، وقدرة أساتذتها الباحثين على متابعة نشرها العلمي وتداوله في البيئات العلمية، ومساهمة بنياتها البحثية في تأصيل تقاليد البحث العلمي في تداول الرأي الأدبي والنقدي وخلق بيئة علمية نشطة بالجامعة، قادرة على إثارة قضايا النظرية والعمل على تطويرها، ومساءلة أدوات المنهج، والتحسين من كفاءة أدواته وقدرتها على إنتاج المعرفة.

النظرية الأدبية والبيئات العلمية العربية: التأريخ الأنواع الأدبية.

1.1. ـ لقد أدي تراكم الوعي النقدي بالنظرية الأدبية، في الربع الأخير من القرن العشرين الحاصل في هذه البيئات إلي تعدد في المداخل النظرية والمنهجية المؤرخة الأدب والمفسرة لظهور الأنواع الأدبية وأشكالها، كما ساهم النشاط البحثي والعلمي المتزايد في وحدات البحث ومخابره في تنشيط دورة إنتاج المعرفة في الجامعات ومعاهد البحوث العربية، وإن بشيء من التفاوت، وهو ما ساهم في تعميق الوعي بالنظرية النقدية، وتجذير تطبيقات مناهجها في التجربة العربية، كان من نتائجه العلمية، تنشيط الحياة العلمية بالكليات ومراكز البحث العلمي بالجامعة، وهو ما خلق مع الوقت في بعض البيئات العلمية العربية دوائر من الحور المعرفي والعلمي داخل وحدات التكوين العليا(الماجستر، الدكتوراه)، وحدات البحث ومخابره المتخصصة، جعلت قضايا النظرية وأطروحته وأسئلة المنهج وأدواته، موضوعا النقاش والسؤال، الشيء الذي ساهم في تراجع التصورات المدرسية والنظريات النقدية التقليدية، التي كانت سائدة في المقررات الجامعية، وخفف من سطوة خطابها في المتداول المعرفي والعلمي القائم. وقد أدي كل ذلك إلي نقض نظريات كانت محل نقاش، واختفاء تصورات وآراء كانت قائمة، واستمرار أطروحات ومناهج كانت محل تطبيق واختبار، وظهور أخريات قابلية للتطبيق ومنتجة للمعرفة، مما هو متداول اليوم، في الكتب الجامعية والدوريات العلمية المحكمة، وأعمال الندوات والملتقيات والمؤتمرات العلمية المتخصصة، ومتضمن في نتائج البحوث والأطاريح المعدة في مراكز البحث، والمناقشة في مدارس الدكتوراه، وغيرها مما يدخل اليوم في دوائر التداول

---

[1] ـ تسمية أطلقناها على المنشغلين بالسرديات من رواد الشعرية من أمثال تودوروف وجنت وفيلب لجان وغيرهم، في كتابنا "السرديات وخطاب السرد: مساهمة في منهجة أطروحة السرديات والتراكمات التي أنتجتها. منشورات جامعة نواكشوط، دار الفكر، بيروت 2010 ص 62

العلمي في البيئات العلمية العربية والأجنبية، ويتقاسمه الباحثون بدرجات من الاطلاع وبمستويات من التفاعل متفاوتة.

1.1.1ـ والنظرية التي نبسطها هنا، والأطروحة التي نسعى لاختبارها، تدخل في دائرة من الدوائر ما زال حظها من البحث والنقاش والمساءلة العلمية محدودا، نتيجة لهيمنة المدخل اللانسوني في تأريخ للأدب، وسطوة نظرية تفسير سوسيولوجيا الأدب لظهور الأنواع الأدبية في أغلب دوائر إنتاج المعرفة في البيئات العلمية العربية، على الرغم من أن مدخل "الشعرية التاريخية"، الذي نتبنى طرحه هنا ونختبر أدواته، مدخل نقدي نادي به رواد الشعرية من السرديين الأول نهاية ستينيات القرن الماضي. فقد تعرض تودوروف لتاريخ الأدب في دراسته المعنونة بـ " **الشعرية والتاريخ الأدبي**" المنشورة في المؤلف الجماعي " **البنيوية في الشعرية**" عام 1968، كما شارك زميله ازوالد ديكرو تأليف كتاب المعجم الموسوعي لعلوم اللغة (1972) الذي ضمنه تصوره **للتغيرية الأدبية** موضوع **تاريخ الأدب**، فهي المتغير من داخل الخطاب الأدبي الذي ينبغي الاشتغال به. ولذلك فعلى دارس تاريخ الأدب أن يدرس تغيرات الخطاب الأدبي في الأعمال الأدبية. كما تعرض جرار جنت في كتابه **وجوه ـ ثلاث**[1] للشعرية التاريخية في ثاني المداخل التي مهد بها ل"**خطاب الحكاية: بحث في المنهج**"، واعتبرها المدخل النقدي للتأريخ للأدب، وعنون هذا المدخل ب " **الشعرية والتاريخ**" وبسط فيه نظريته، معتبرا أن تاريخ الأدب هو تاريخ للأدب في ذاته لا في ظروفه الخارجية، وهو أيضا تاريخ للأدب لذاته وليس باعتباره وثيقة تاريخية. و" لن يكون هو الأعمال الأدبية نفسها ذلك أن العمل الأدبي موضوع جد متفرد ودقيق لكي يكون موضوعا للتاريخ"[2]، ومن ثم فهو عنده تاريخ للأشكال حين يتم التركيز على" القوانين البلاغية، والتقنيات السردية، والبنيات الشعرية ....الخ، لأنه يوجد تاريخ للأشكال الأدبية كما لكل الأشكال الجمالية".[3]

السرديات والبيئة العلمية العربية: السرديات التاريخية.

2.1ـ في الأفق النظري والمنهجي لهذا الطرح، يأتي هذا البحث ليقدم تصورا نقديا لظهور الأشكال السردية، يستند في مرتكزاته النظرية ومحدداته المنهجية إلى السرديات. فيسعى إلى تقديم أطروحة، تنقض نظرية الرواية عند لوسيان غولدمان، وتسائل أطروحته المنهجية، من منظور نقدي يستند في مرتكزاته النظرية إلى الشعرية التاريخية في تفسيرها لظهور الأنواع الأدبية وأشكال تحققها، وفي

---

[1] — Figures 3 . collection poétique éd. Seuil. Paris.).1972(Gérard Genette ;

[2] Gérard Genette ; Figures 3. op ,cit..p.17

[3] — Figures 3 . collection poétique éd. Seuil. Paris.) .1972(Gérard Genette ; p. 17

محدداتها المنهجية إلى السرديات الوصفية، في اختبار أطروحته النقدية. فينشغل ب" بطبقات القول ونثرياتها" موضوعا للبحث، في تفسيره لتحولات الخطاب السردي المؤدية لظهور الشكل السردي (الرواية هنا)، ولتغيرات سردية الخطاب، المولدة لخصوصية السرد وملامحه المحلية. وقد أدي الانشغال بالسرديات الوصفية وتطبيقاتها على النثر المرسل في الأدب العربي إلي الانتباه إلى أن ظهور الأشكال التعبيرية التواصلية (الحكمة، المثل، القول السائر) والبلاغية (الخطة، الفتوي، المقال، التقرير، الحديث ....) والأدبية(البيت، القطعة، القصيدة، القصة القصيرة، القصة، الرواية، المسرحية ...) نتاج لهيمنة نثرية لغوية في احدي طبقات القول الثلاثة. وأن هذه النثرية تنشأ من تراكم تطويع اللغة، في محافل أدائها اللغوي، مما يسهم في بروز نثرية لغوية، في طبقات القول الثلاثة (التواصلية، البلاغية، الأدبية) ذات مستويات من الكثافة اللغوية والبلاغية والأدبية، بسيطة ومركبة وجميلة. هي المحددة للشكل التعبيري ونوعه، على نحو ما سيكشف عنه الوصف والتحليل لأطروحة "سرديات النثرية"، لاحقا.

السرديات التاريخية وظهور الأنواع الأدبية: سرديات النثرية

3.1. ـــ يقترح هذا الطرح "سرديات النثرية" خيارا لتوسيع السرديات التاريخية، وتعميق مدركاتها النقدية والتحسين من كفاءة أدواتها المنهجية في قدرتها على التعرف على منابت الخطاب السردي في نثرية لغة من اللغات، وتحولاته السردية المؤدية لظهور الأشكال السردية، والوقوف على مصادر سردية الخطاب ومآتي الإمتاع والمؤانسة فيها، المحققة لخصوصية السردية والمنوعة لها. وهو خيار يوسع من مجال نظر السرديات التاريخية، ومن دائرة إبصارها، ويتيح للمشتغلين بالسرديات التاريخية، كفاية في النظر تمنحهم القدرة على جعلهم يبصرون التحولات النثرية المؤدية لظهور الأشكال السردية في مجتمع من المجتمعات. ويتخذ هذا الطرح من أطروحة لوسيان كولدمان في ظهور الرواية، عند السوسيولوجيين عينة للمساءلة والنقض، وهو إلى ذلك أطروحة[1] تسعي لتوسع

---

[1] ـــ تستند هذه الأطروحة التي ستبسط جانبها النظري إلي جانب منهجي، يتبني السرديات التوسيعية مشغلا وأدوات منهجية للتأريخ للأشكال السردية، وقد دخلت هذه الأطروحة دائرة التداول العلمي العام منذ فترة، فكانت مرتكزا نظريا ومنهجيا، للعديد من البحوث والدراسات المنشورة في دوريات عربية متخصصة، كان بعضها مشاركة في مؤتمرات وملتقيات علمية عربية، أقدمها بحث" الأشكال التراثية والنثرية التراثية: مساهمة في الوعي بالعلاقة (النص الموريتاني نموذجا)، الذي شاركت به في مؤتمر الرواية العربية الأول: خصوصية الرواية العربية، القاهرة، فبراير 1998، وبحث" الرواية العربية والنثرية العربية، قدم في ندوة نجيب محفوظ والرواية العربية المنعقدة بالقاهرة على هامش مؤتمر الاتحاد العام لأدباء والكتاب العرب لعام 2006 ونشر في مجلة الاتحاد. أما التداول العلمي الخاص، فقد كانت الأطروحة موضع اختبار في عدة بحوث بماستر " مناهج البحث واللغة " وأطاريح بمدرسة الدكتوراه مكونة "النص

المدارك النظرية والمنهجية للشـــعرية التاريخية في تصـــوراتها النظرية والمنهجية لظهور الأنواع والأشـــكال الأدبيـة، وتختبر أدواتها وتطبيقاتها في تفســـير ظهور الأشـــكال الســـرديـة.

1.3.1. ـ يمثل خيار " سرديات النثرية "أطروحة نقدية لتفسير ظهور الأنواع الأدبية وأشكال تحققها، ومنها نوع السرد وأشكاله، في المحافل اللغوية لمجتمعات الأدب وحواضنه الثقافية، المؤدية تراكمات النثر المرســـل فيها إلى تمايز طبقات من قول المنتجة للنثرية الأدبية، المولدة للخطاب الســـردي وأشكال تحققه. وهي أطروحة بديلة، لتفسير ظهور الأشكال السردية ومنها الرواية، عند سوسيولوجيا الأدب، مازال تداولها العلمي في البيئات العلمية العربية محدودا، حاضـــنة البحث العلمي لها البيئة العلمية العربية، ومدخلها إلى التداول العلمي مؤتمرنا العلمي الموقر هذا.

سرديات النثرية والسرديات التاريخية: تعميق مبصرات النظرية.

4.1. ـ يقدم البحث توسيعا لمدارك السرديات التاريخية، باقتراحه لخيارين نظري ومنهجي: يسعى النظري منهما إلى تعميق مبصرات نظرية السرديات التاريخية، وإثراء تصوراتها النقدية لتاريخ ظهور الأشكال السردية في أدب من الآداب، وتوسيع دائرة إضاءتها لمشغلها العلمي، المتمثل في البحث عن ظهور الأشكال السردية في آداب الأمم وتأريخ لها، على نحو ما سيكشف عنه الوصف والتحليل في حينه. أما المنهجي، فيسعى إلي تطوير الكفاءة المنهجية للسرديات التوسيمية: بالعمل على التحسين من عدتها المنهجية، الواصفة للسردية (زيادة مكونات الخطاب) من جهة، وقدرتها على وصف السردية، وإضاءتها لمساحة من السردية، لم يقف عليها سرديو السرديات الحصرية (تودوروف، جيرار جنيت وغيرهما) من جهة ثانية. وذلك من خلال توسيع مكونات الخطاب السردي لتشمل مكونتين، لم يقف عليهما سرديو الخطاب، في تحديدهم لمكونات الخطاب السردي، هما: المتخيل ومستويات اللغة. وتوسيع دائرة سردية الخطاب، بتغطيتها لمساحة من السردية، مأتي الحسن فيها ومصدره، هذه المرة، ليست طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير ، وإنما طرائق تكثيف المتخيل السردي ومستويات اللغة. وهي إضاءة لمناطق ظل من سردية الخطاب، ظلت مظلمة، لم تصلها

والمناهج" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط العصرية، منها أطروحة الدكتوراه زينب عابدين، " الأشكال السردية التراثية الموريتانية : شعرية الشكل وخصوصية النص"، التي نوقشت يوم 2019/6/27 وشكلت لجنة النقاش من لأساتذة الدكاترة : أ. د. عبد الله السيد رئيسا أ. د. سعيد يقطين مقررا ومناقشا د. محسن محبوبي مقررا ومناقشا د. محمد نتا مناقشا أ. د. محمد الأمين مولاي إبراهيم مديرا للأطروحة، وقد حاز البحث مرتبة الشرف الأولي مع تهنئة اللجنة. وهي أطروحة تختبر الجانب النظري والمنهجي للنظرية وتطبيقاتها على الأشكال السردية التراثية الموريتانية، التي هي وليدة هيمنة نثرية فقهية تراثية على نثريات التداول في المحافل اللغوية الموريتانية سبعينيات القرن الماضي.

إليها إثارة عدة الحصريين، الوافقين في وصفهم لسردية الخطاب عند طرائق اشتغال الزمن وصيغة والتبئير.

سرديات التمدد والسرديات التاريخية: التمسك بالمشغل التعبيري وتمدد مكونات الخطاب.

5.1ـ هذا الخيار في توسيع السرديات، قائم على قاعدة التمدد والانتشار (سرديات التمدد) وليس على التوسع والانتقال كما نادي بذلك التوسيعيون (السرديات التوسيعية)، فهو ينكب طريق الجمع بين التعبيري والدلالي في توسيعه للسرديات، وفتح الحدود بين السرديات وسيميولوجيا السرد في البحث عن سردية مفقودة للنص، كما دعا إلى ذلك، فليب ماتيو كولاس في توسيعه" لحدود السرديات".

ويتكئ في توسيع السرديات على قاعدة التمدد الموسع لمكونات الخطاب السردي، لا على أساس التوسع في المشغل ليشمل الخطاب والقصة، على نحو ما ذهب إليه كولاس. وإنما ،ضمن توجهات نظرية ومنهجية ساعية إلي توسيع للسرديات يتأسس على النقيد بأطروحتها (سرديات، الخطاب) ومشغلها(السردية التعبيرية) ومنهجها وأدواتها(وصف طرائق اشتغال مكونات الخطاب)، ويلتزم في خياراته النظرية والمنهجية، بالبعد التعبيري والمجال اللفظي أداة للكشف عن سردية الخطاب، بتوسيعه لمكونات الخطاب السردي من ثلاث مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير) الي خمس (الزمن، الصيغة، التبئير، المتخيل، مستويات اللغة)، توسيعا لما ضيقه السلف من أصحاب السرديات الحصرية، المكتفين بالزمن والصيغة والتبئير مصدرا للسردية، وصدا عن سبيل دشنه سرديون جدد، جمعوا في، وصفهم لسردية النص بين التعبيري والسيميولوجي، وسيرا في وجهة يممها سرديون جدد آخرون، في تعميقهم لمدارك أطروحة السرديات، النظرية والمنهجية، تتأسس على التمسك بالاختصاص، والانخراط في المشغل، وتعزيز سلطة الصنافة العلمية القائمة على الفصل بين التخصصات والتمايز في المشاغل، التي قام عليها علم، وسعي لبلوغها علم الأدب.

البيئات العلمية العربية والفكر الأدبي العربي: دورة إنتاج المعرفة.

0.2 ـ يأخذ الخطاب النقدي قدرته على خلق الوعي وقوته في إنتاج المعرفة في الجامعة، بحسب أعداد المُدرسين له الحاملين لفكره، وكثافة الطلاب الباحثين المتبنين لطرحه والمشتغلين بأدواته عقدا ونيفا من الزمن، يتم فيه تقديم المعرفة في الليسانس (الباكلوريوس)، ونقد المعرفة في الماستر(الماجستر)، وإنتاج المعرفة في الدكتوراه، ويَحْصُل خلاله تبادل المواقع بين منتجي المعرفة والمؤهلين لخلافتهم، لاستكمال دورة اكتساب المعرفة وتحصيل العلم وإنتاجه بالجامعة. ويلاحظ المتتبع لحركة الفكر والعلم في الحالة العربية، أن هذه الدورة لا تستكمل جل حلقاتها، في الغالب إلا بعد مرور عقدين أو ثلاثة، ليحصل تبادل المواقع المعرفية والعلمية بين الجيلين، الذي تتطلبه الحياة العلمية النشطة بالجامعة. فالتقاء الجيل أو الجيلين أو الثلاثة في الفكر الأدبي والطرح النقدي

والاختبار المنهجي، يجعل تحديد الجيل بالعامل الزمني، في البيئات العلمية العربية غير دقيق في توصـــيف تآخذ حلقات تطور المعرفة والعلم في الجامعات العربية. فالفكر الأدبي ومناهجه النقدية مثلا، في الكثير من الجامعات العربية، يشـيخان مع الشـيوخ ولا يتجددان مع المدرسـين والباحثين الجدد، إلا بعد مرور عقود من الزمن، نظرا لهيمنة النظرية المُدَرسـة في المقررات، وسـيادة الطرح المُخْتَبر وسلطة المنهج المطبق، وعدم حذق الأدوات المطبق بها والتمكن منها.

1.2ـ فأفكار النظرية النقدية في بعض هذه البيئات، تأخذ فترة طويلة قبل أن تُنْقَض أو تَقْبل التعايش مع أفكار أو نظريات أخرى، والرأي المُخْتَبَر(الأطروحة) يحتفظ به مدة غير قصيرة، قبل أن يُبْنى عليه أو يُتَجَاوز، والمنهج النقدي بعِدّته المنهجية يُتَمَسّك به فترة طويلة، فيصبح عند البعض أقرب إلي المذهب منه إلي المنهج، فلا تكون أطروحته وأدواته المنهجية محل اختبار وتطبيق، ليتفطن إلي أنه حلقة من حلقات تطور المناهج النقدية، وأداة من الأدوات المنهجية الواصفة للأدب والمحللة له، ولا يبدل فيؤخذ بمنهج نقدي وعدة منهجية أخري تغني الدرس الأدبي، وتنوع من تطبيقات المناهج في البحوث والأطروحات.

1.1.2 ـ ومن هنا اتسمت حركة أفكار النظرية في هذه البيئات بالبطء وضعف الحركة، وغلب على تجذر المناهج بها، الجمود وعدم التبدل. ولذلك وصفت الأجيال في العديد من البيئات العلمية العربية، بأنها أجيال ممتدة، امتداد حيوية النظرية والتمسك بها في الجامعة المُدَرسة بها، وطولَ مدة تطبيق المنهج و فترة الاحتفاظ به والتعاطي معه، لأن فعل التغير المعرفي والتطور العلمي في هذه البيئات، لا يأتي في الغالب من نقض للأفكار، واختبار للمناهج وأدواتها، من طرف باحثين ومدرسين جدد، كل عشر سنوات أو خمسة عشر عاما الفترة المحددة، عند أصحاب سوسيولوجا المعرفة لظهور جيل جديد، والمخصصة عند الإبستمولوجيين للدورة المعرفية والعلمية بالجامعات ومراكز البحث، لإعادة إنتاج المعرفة على يد مدرسين باحثين جدد، على نحو ما يحصل في البيئات العلمية النشطة، والحواضن المعرفية الحية.

الفكر الأدبي العربي: بطء حركة النظرية وتصلب المنهج.

2.2ـ ومن العينات الدالة على بطء حركة أفكار النظرية النقدية في بعض البيئات العلمية العربية وضعف نشاطها، وتصلب المناهج النقدية فيها وعدم حيوية تطبيقاتها المنهجية، على نحو ما أشرنا له أعلاه، ما تثيره النظرية النقدية المعاصرة في هذه البيئات العلمية العربية من قضايا، ويطرحه المنهج من أسئلة، وهو ما سنسعى إلي إجلاء بعض ملامحه، بالتوقف هنا عند مظهر من مظاهر الفكر الأدبي العربي، يتعلق بقضية من قضايا الفكر الأدبي العربي المتصلة بالتأريخ للأنواع الأدبية(الشعر، السرد، المسرح) وأشكال تحققها عامة، وبنوع السرد وأشكال تحققه بصفة خاصة،

منطلقين في هذا الطرح من الشعرية التاريخية مدخلا للتأريخ للأنواع والأشكال، ومن السرديات التاريخية مرتكزا نظريا لتقديم الأطروحة البديلة، ومحددا منهجيا لاختبارها.

النظرية النقدية والتنظير للأنواع الأدبية: سوسيولوجيا الأدب والتنظير للرواية.

0.3 ـ من " أبرز التصورات النظرية النقدية – التي ظلت قائمة في أذهان النقاد العرب المدرسيين والأساتذة الباحثين، وتمسك بها الفكر النقد العربي، فترة غير قصيرة من الزمن، ولم تتعرض بعد في بيئات علمية عديدة للاهتزاز والنقض، المؤديين عادة إلى اختفاء التصورات والمسلمات النقدية، وإدخالهما في دائرة تاريخ الأفكار – الربط بين الشعر والصحراء (الفضاءات المفتوحة)، وبين الرواية والمدينة (الفضاءات المغلقة)،"[1] وهو الربط الذي ولد مع الزمن نوعا من التواطؤ النقدي الضمني لدى الكثير من النقاد العرب المدرسين، مؤداه "أن درجة الكثافة الفنية لسرد الصحراء بمتخيلها ورُؤاها وصيغها السردية، ليست مُهَيِّئة لإنتاج النص الروائي، لانتماء هذا السرد ومتخيله السردي إلى تكوينات اجتماعية صحراوية مباينة للتكوين الاجتماعي بالمدينة، الذي أدى لظهور الرواية في المجتمعات الغربية، نتيجة لتحول اجتماعي وثقافي مغاير لمجتمعات الجنوب وثقافته"[2]. ومن هنا ظل التصور الرابط بين ظهور الرواية وصعود البرجوازية الصغرى في المجتمع الغربي، الذي انتهى إليه التنظير الماركسي في رصده لظهور هذا الشكل السردي ـ في نظرنا ـ " المسلمة النقدية المضللة لذهنية النقد العربي والمكرسة لطرح لا يستجيب لشروط الإبداع في مجتمعات الجنوب ولخصوصيات القول الأدبي فيها"[3]، بفعل تبنيها المطلق لهذا الطرح، وعدم قدرة هذه الذهنية على التحرر من سلطان التنظير الغربي لتاريخ ظهور الأشكال السردية من جهة، وعدم استطاعة التفكير المنهجي لأصحاب هذه الذهنية التحصن من سلطة الإسقاط المعرفي والمنهجي، الذي اتسم به النقد الأكاديمي التقليدي، ولم تسلم منه العديد من هذه البيئات من جهة أخرى.

1.3 ـ ونتيجة لذلك لم يقع التفكير في مراجعة هذه المسلمة، ومساءلة تفكيرها النقدي في ظل تطور النظرية النقدية في فكر الأدبي العربي، وما أتاحته من أفق للتنظير للأنواع والأشكال الأدبية، وما وفرته من مناهج وأدوات لمراجعة النظريات السائدة والأطروحات القائمة، إلا في دوائر محدودة من الوعي النقدي، بل اتجه الدرس النقدي الأكاديمي في بعض مقررات الجامعات العربية إلى تدعيم هذه

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص، تقديم أ. د. سعيد يقطين، الكتاب الفائز بجائزة شنقيط للآداب والفنون 2004، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 2012، ص/15

[2] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق ص/ 15

[3] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق ص/16

المسلمة، وتقوية حضورها في أذهان الطلاب الباحثين، رغم ما أشاعه النقد الجديد من وعي نقدي مضاد لهذا الطرح ولتفكيره المنهجي. فكان من أبرز القضايا التي اعترضت الفكر النقدي العربي في العشرين سنة الماضية، التي يمكن أن نعرض لها هنا، صعوبة تصنيف بعض النصوص الروائية العربية، المكتوبة في فضاء الصحراء العربية، الممتد من موريتانيا وجنوب المغرب والجزائر وليبيا وتونس وعبر صعيد مصر وسهول بلاد الخصيب وصحراء اليمن وبلاد الخليج، وخاصة بعد تضاعف أعداد قوائم هذه النصوص. فلم يستطع منظرو هذا الفكر النقدي أن يدخلوا هذه القوائم في خانات الكتابة الروائية العربية القائمة، لما اتسمت به نصوص هذا الشكل الروائي الجديد من ملامح فنية مغايرة لتشكل الخطاب الروائي السائد. الأمر الذي جعل تصنيف هذه القوائم من النصوص الروائية في خانة الرواية المتعالقة نصوصها مع البنيات الاجتماعية لمجتمع المدينة، بقوائمها المتعددة (الرواية الاجتماعية، رواية تيار الوعي، رواية الحداثة..) أمرا غير ممكن، نظرا لما يتسم به الخطاب الروائي في هذه النصوص من ملامح سردية، تتجلي في طرائق من تكثيف للمتخيل، ودرجات من التشكل للخطاب، وأساليب من التعبير عن منطوقات أهل الجنوب، ومستويات من الرؤية السردية لموصوفات عالم الصحراء، تعطي هذا النص الروائي سردية ممتعة ومؤنسة مختلفة عن سردية رواية المدينة، ومفارقة لها في مصادر مآتي حسنها وجماليات إبداعها لسردية رواية المدينة. وهو ما نوع من مصادر الإبداع الروائي العربي، ومد الروائيين العرب بأدوات من الكتابة جديدة مكنت الرواية العربية من اكتشاف عالم الصحراء.

1.1.3ـ وبذلك لم تُنْقَض نظرية الرواية عند السوسيولوجيين وخاصة أطروحة لوسيان كولدمان منهم القائلة بان الرواية شكل سردي جديد، يظهر في مجتمعات المدينة، يرتبط ظهوره بصعود البرجوازية الصغرى(الطبقة الوسطى) وتنامي الوعي الطبقي فيها. فالرواية تقدم رؤية للعالم من طرف كتاب ومثقفين، يناهضون البرجوازية الكبرى ويسعون لتعزيز مكانة أصحاب الكسب بالأذهان في المجتمع والدولة(الأساتذة، القضاة، الإداريون، المهندسون، الإعلاميون ....)، في وجه قوة نفوذ أصحاب الكسب بالمال(أصحاب رأس المال، وكبار المستثمرين، كبار التجار...) وتراجع دور أصحاب الكسب بالسواعد(العمال اليدويين، والحرفيون، أصحاب الكسب اليدوي..). وتستند نظرية الرواية عند كولدمان في مرجعياتها الفكرية ومرتكزاتها النظرية وأدواتها المنهجية، إلي التنظير الروائي عند المنظرين السوسيولوجيين الأول (هيغل، لوكاتش، باختين...)، الذين انشغلوا عبر مراحل متطاولة بالتنظير للرواية، معتبرين أنها الشكل السردي الحديث، الذي أنتجته تحولات اجتماعية وثقافية وفكرية عرفتها المجتمعات الغربية. وقد نظروا لهذا الشكل وقدموا تصورات نظرية ونقدية تتخذ من الفلسفة الماركسية مرجعا، ومن التفسيرات الماركسية للسوسيولوجي والثقافي مرتكزا لتقديم نظرية نقدية لظهور

الرواية في المجتمعات الغربية، متسقة ومتجانسة، لكنها وإن عملت على تنويع مداخل النظرية الأدبية الحديثة لظهور الأنواع والأشكال الأدبية فإنها تظل ـ في نظرنا ـ نظرية أدبية تستند في تفسيرها لظهور الرواية إلي أوضاع اجتماعية وثقافية عرفتها مجتمع الشمال بتكويناته الاجتماعية والثقافية المختلفة، وإلي أوضاع من التخاطب اللغوي والأدبي خاص بها، لا تنطبق على الأوضاع الاجتماعية والثقافية لمجتمعات الجنوب ذات التكوينات الاجتماعية الخاصة، ولا على أوضاع تخاطبها اللغوي والأدبي الخاصة، التي أدت إلي ظهور الأنواع والأشكال الأدبية بها، ولما يقوم بين العالمين من فروق واختلافات في الإنسان والمكان والزمان.

ـ ظهور رواية الصحراء وخلخلة الوعي بنظرية الرواية:

2.3. لقد ظلت سلطة هذا الطرح في التنظير للرواية ممتدة في العديد من البيئات العلمية العربية، حية في الفكر الأدبي العربي الحاضن لها، ولم تتمكن النظريات النقدية الناقضة لنظرية سوسيولوجيا الأدب واللاحقة عليها(النظرية النقدية البنيوية، الشعرية، السيميولوجا) في فكرنا النقدي، أن تؤسس لوعي نقدي يستند إلي هذه النظريات، ويقدم تنظيرا للأشكال السردية ينقض هذا الطرح، ويخفف من وطأة الانصياع التلقائي لسلطة التنظير السوسيولوجي للأدب. فاستمر التفسير السوسيولوجي لظهور الرواية عند لوسيان كُولْدمان طرحا نظريا سائدا، ووعيا نقديا قائما في أغلب البيئات العلمية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين، وتعززت مرتكزاته النظرية باستفادته من أدوات البنيوية، فأصبح أطروحة متداولة، ووعيا مهيمنا على التفكير المنهجي وذهنيته النقدية في هذه البيئات. ولم يتخلخل الوعي بمسلماته النظرية والمنهجية إلا بظهور النص الإبداعي ذاته(رواية الصحراء)، مع روائيين عرب ينتمون إلي فضاء الصحراء، بوتيرة أسرع وعدد أكبر، فكان ظهور رواية الصحراء في بعض البلدان العربية ذات التكوينات الاجتماعية الصحراوية، الفعل الإبداعي المُظْهر لعدم تماسك هذا الطرح والمقوض لمسلماته. فكان بذلك الإبداع في هذه البلدان فعل الكتابة المقوض لهذا الطرح، والخطاب الإبداعي المخلخل لتفكيره النقدي، في اتجاه يدفع إلى إعادة النظر في مسلمات هذا الطرح، ويدعو النقاد والمدرسين الباحثين إلى ضرورة مراجعة بعض مسلمات النقد العربي الحديث المعيقة لتطوره وتجديد فكره وتحرر ذهنيته النقدية من سلطة النقد الأكاديمي المدرسي وسلطان عقله. وبذلك تثبت الكتابة الإبداعية في تاريخ الأدب العربي الحديث أنها صنو النقد في الإسهام في تطوره وتجديد فكره الأدبي.

ـــ السرديات التاريخية ونقض أطروحة كولدمان

3. 1.2ـــ وعلى الرغم من أن أطروحة لوسيان كولدمان في التنظير للرواية ما زالت حية تدرس، وتلقي استحسانا نظريا ومنهجيا في العديد من البيئات العلمية العربية، فإنه من الملاحظ أن الفكر النقدي في بعض هذه البيئات، قد عرف بروز وعي نقدي ناقض لنظرية سوسيولوجيا الأدب، مسائل لمرتكزاتها النظرية ولأدواتها المنهجية المحققة لشوط قبولها. وقد بدأ أصحابه يأخذون مواقع تأثيرهم في المحافل العلمية لهذه البيئات، ويحظى الطلاب الباحثين الحاملين لفكره، بالاهتمام العلمي داخل المجالس العلمية لوحدات التكوين العليا، وفي اللجان العلمية للأطروحات والنشر العلمي بالجامعة، نتيجة لما عرفه النقد في البيئات العلمية العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين من تطور ملحوظ على مستوى النظرية والمنهج والتفكير يُبِينُ عن مستوي من الوعي بالنظرية النقدية يبرز لا في التمكن من مناهجها النقدية بأطروحاتها المتعددة فحسب، وإنما أيضا علي مستوى تعامل النقاد الباحثين مع الموضوع؛ وإكسابهم ذهنية نقدية أكثر تحررا من سلطة التنظير النقدي الغربي المدرسي[1]؛ وأقدر على تطبيقات المناهج التي يختارونها؛ وفقا لرؤيتهم النقدية الخاصة .

1.1.2.3 ـــــ وقد كان حظ الشعرية وتطبيقاتها من هذا الوعي والممارسة بارزا حيث برزت أسماء مؤسسة لهذه النظرية النقدية وتطبيقاتها المنهجية في التجربة العربية في مختلف البيئات العلمية العربية؛ كان لها الدور الرائد في تكوين جيل من الأساتذة الباحثين الشباب حينها في أغلب الجامعات العربية نهاية التسعينيات المشتغلين بالشعرية منهجا والمنتبنين لأطروحتها خيار للمقاربة والتنظير؛ وخاصة منهم أصحاب اختصاص السرديات ؛ حيث حظي السرد وأشكاله بالدراسة والتنظير وأنجزت في هذا المجال أطروحات جامعية مؤسسة، وأعدت دراسات مهمة رائدة، وألفت كتب نقدية عمدة ونظمت ندوات متخصصة جامعة، ونشرت بحوث علمية رصينة. هذه الجهود كلها كانت الحاضنة المعرفية والمنهجية؛ التي أدت إلى ظهور السرديات العربية وتطبيقاتها المنهجية. وقد صاحب هذا الظهور فكر أدبي ووعي نقدي عربي بدأت ملامحه تتشكل في البيئات العلمية العربية وحواضنها الثقافية من ذو العقد الأخير من القرن العشرين؛ – يتبنى السرديات منهجا لمقاربة النص السردي والتأريخ للأنواع السردية وأشكالها، إسهاما منه في تعميق الوعي المعرفي والعلمي بالسرديات في البيئات العلمية العربية من جهة، وتقديم سرديات عربية متفاعلة مع

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: السرديات البويتيقية ومشغل الدلالة: تجربة النقد البويتيقي السردي العربي، علامات في النقد الأدبي، النادي الأدبي الثقافي بجد، المجلد 9، الجزء 33، سبتمبر1999، ص/331

ما تشهده السرديات في المحافل العلمية الدولية من تطور حيوي وسريع، تتطلب مواكبته والمساهمة فيه، متابعة علمية دقيقة لحواراته العلمية وتطبيقاته المنهجية.

السرديات التاريخية وظهور الأشكال السردية: الأطروحة البديلة.

3.3. ـ وفي إطار ترسيخ التصورات السردية المؤسسة التي اضطلع بها في السرديات العربية الجيل المؤسس[1]، ظهرت في بعض البيئات العلمية العربية تصورات نقدية مؤكدة على المنحى التأسيسي العام الذي سنه السرديون الأول، تحمل هذه التصورات رؤية وطرح الجيل الثاني[2] من السرديين العرب من مدرسي السرديات في الجامعات العربية، ممن تتلمذوا علي الجيل المؤسس وانخرطوا في مشروعه العلمي وأسسوا لذواتهم خيارات منهجية، ومسارات علمية اختلفت من تخصص لآخر، وتنوعت من مشغل لآخر، وهي تصورات تمايزت في آرائها النقدية وأطروحاتها العلمية من حاضنة علمية لأخرى. وقد أسهم هذا الجيل في العقدين الأولين من هذا القرن في توسيع قاعدة المشتغلين بالسرديات في البيئات العلمية العربية، بتخريجه لجيل ثالث من الباحثين السرديين الشباب المتخذين من السرديات التطبيقية مشغلا لبحوثهم وأطروحاتهم في مدارس الدكتوراه ومراكز البحث بالجامعات العربية.

1.3.3. ـــ وقد اطلع الجيل الثاني من السرديين العرب ـــ إلي جانب أساتذته ـــ بمهام علمية وتكوينية أساسية في البيئات العلمية التي ينتمون إليها، ساهمات في تجذير السرديات العربية، بتعميقهم للقضايا التي أثارها المؤسسون، ومواجهة الأسئلة التي طرحوا، فتعددت معهم الاختصاصات والمشاغل السردية، وتمايزت المرتكزات النظرية، وتنوعت المداخل النظرية التي يصدرون عنها، والخيارات المنهجية التي يختبرون، فظهرت في السرديات العربية : سرديات شعرية وسرديات سميولوجية تفرع عن الشعرية فرع حصري وآخر توسيعي، وعن السميولوجية نموذج عاملي وآخر النصي. وقد كان للجدل المعرفي الذي عرفته صفحات الكتاب النقدي والجامعي، والنقاشات العلمية التي دارت في ساحات الدرس وداخل قاعات النقاش بالجامعة، أثرها الكبير في بروز تصورات نقدية متعددة ومتنوعة، هي اليوم في البيئات العلمية العربية، مدار لحوار معرفي

---

[1] من جيل السرديين العرب المؤسسين يمكن أن نذكر د. محمود طرشونة، د. سعيد يقطين ود. عبد الله إبراهيم ود. سيزا قاسم ود. محمد نجيب العمامي ود. سعيد بنكراد ود. محمد القاضي، ود. سعيد المتوكل، وغيرهم، ممن عرفوا بإسهاماتها العلمية البارزة في تأسيس سرديات عربية، أصبحت اليوم في البيئات العلمية العربية سلطا ومراجع علمية معروفة.

[2] . من الجيل الثاني من السرديين العرب، الذين تتلمذوا على الجيل المؤسس، مدرسي السرديات اليوم في أغلب الجامعات العربية، وممن أنجزوا أطروحات وأصدروا أعمالا وأشرفوا على بحوث وأطروحات جذرت السرديات التطبيقية في التجربة العربية، ونوعت من خياراتها المنهجية وأطروحاتها النظرية.

وعلمي بين المنشغلين بالسرديات وأصحاب هذه التصورات، ومحل للنقاش وللمساءلة في بحوث وأطروحات الجيل الثالث من الباحثين السرديين الشباب. ولئن أفرزت هذا الحوارات والنقاشات العديد من الآراء والتصورات النقدية والأطروحات، هي في عمومه اليوم المحتوى العلمي لأهم القضايا والأسئلة التي تطرحها السرديات العربية، فأننا سنكتفي هنا بعرض تصور من هذه التصورات المراجعة لنظرية الرواية عند لوسيان كولدمان. وهو طرح يناهض المرتكز السوسيولوجي الذي اعتمد عليه في تفسير ظهور الرواية والأشكال السردية، ويساءل الخلفيات النظرية المؤسسة لأطروحته في بنائها للمعرفة، ويختبر الأدوات المنهجية المنتجة لها.

سرديات النثرية: ظهور الروية تحول في طبقات القول وتمايز لنثرياتها:

4.3. ـــ يتأسس الطرح الذي نسعى لبسطه هنا، على مرتكز نقدي نصي، يستند في مداخله النظرية وأدواته المنهجية إلى الشعرية Poétique في انطلاقها من "الأدبي" مجلا للبحث وانشغالها بالأدبية موضوعا للبحث، بكشفها لما به يكون النص الأدبي نصا أدبيا من جهة، واشتغالها بالخطاب في وصفها لسردية الخطاب السردي، واكتشافها لمآتي الحسن ومستويات الإمتاع والمؤنسة فيه من جهة ثانية. وهو تصور يفسر نشأة السرد وظهور أشكاله انطلاقا من أطروحة " السرديات التاريخية"، التخصص النقدي الدقيق من اختصاص السرديات، الذي يتخذ من تاريخ الخطاب السردي في ثقافة من الثقافات، ومجتمع من المجتمعات موضوعا للبحث والدراسة، ومن ظهور الأشكال السردية فيه، مشغلا علميا يتم فيه البحث عن نشأة خطاب السرد في الحواضن اللغوية والمحافل الثقافية للمجتمعات في تعبيرها عن " الاجتماعي" والثقافي" و"الحضاري".

1.4.3. ـ وهو مشغل يؤسس للقول إن ظهور الأشكال السردية عامة (رواية أو قصة أو أشكال سردية تراثية) وليدة تراكمات نثرية مولدة لخطاب السرد حاضنة له، ومحققة لسردية خطابه. فالبحث عن ظهور هذه الأشكال في ثقافة من الثقافات ومجتمع من المجتمعات ـ من هذا المنظور ـ هو بحث في طبقات لغة حية قادرة في تطويعها للنثر المرسل على إنتاج نثرية أدبية، محققة لجماليات سردية ممتعة ومؤنسة. ومن ثمة فالبحث عن العوامل المؤدية لظهور شكل من الأشكال السردية، ينبغي أن يبحث عنه في طبقات القول المولدة لنثريات الكلام المرسل، في محافلها التواصلية وحواضنها اللغوية المطوعة للغة والمعبرة عن "الاجتماعي" و"الثقافي" في مجتمع من المجتمعات، ووصف التراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردي. ويتحدد الفرق بين النثر المرسل والنثرية، هنا في أن:

1.1.4.3 ـ " النثر: تطويع للسان يعبر عن إبانة من القول اللغوي الموافق لشروط اللغة المعبر بها في إجرائها وطرق تركيب مجازها،"[1] فالنثر العربي مثلا هو تطويع للسان العربي، المعبر عن إبانة من القول العربي الفصيح الموافق لشروط الفصحى في إجراء لغتها وطرق تركيب مجازها وشروط تحقق إبداعها، ولكل نثر لغوي أنساقه اللسانية التي يطوع من خلالها، **فالنسق اللساني:** هو " الإبانة عن معنى ما، وفق تقاليد من القول معينة، تجعل هذه الإبانة ذات سمة لغوية مميزة ومفارقة لسواها، نتيجة لاكتساب هذه الإبانة معجمها اللساني الخاص بها، وطريقتها الخاصة في إجراء اللغة وتركيب مجازاتها، وفق سنن من القول اللغوي محددة،"[2] وقد عرف اللسان العربي بتعدد أنساقه اللسانية – شأنه شأن أي لسان– التي حققت فعل قوله اللغوي، وكونت خبرة تطويع الفصحى عبر الزمن، وهي الأنساق التي يمكن أن نذكر منها: النسق **اللساني الصوفي**، والنسق **اللساني الفقهي**، وغيرهما من الأنساق التي أنتجها تطويع النثر العربي الفصيح لحاجة تواصلية أو بلاغية أو جمالية.

2.1.4.3ـــ أما النثرية: فهي " فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر المرسل لغرض كتابي ما، وفق شـــروط إبانة اللغة المكتوب بها. والنثرية بهذا المعنى فعل لغوي متحقق وفق ســـياق محدد، وعبر نسق لساني متميز ومحدد"[3]. ومن هنا جاء ثراء النثرية وتعددت أنواعها ومصادر ثرائها في اللسان، وانقسامها في كل لغة إلى نثرية تراثية ونثرية حديثة؛ ولكل منهما أنساقه اللسانية المتعددة والمتنوعة وأشـــكال كتابتها التعبيرية والأدبية. فالنثرية العربية مثلا هي فعل الكتابة الحاصـــل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي ما، وفق شروط إبانة العربية. وهي متحققة وفق سياق محدد، وعبر نسق لساني متميز ومحدد. ومن هنا جاء ثراء النثرية العربية وتعددت أنواعها ومصـادر ثرائها في اللســـان العربي. فلكل من النثرية العربية تراثية ونثرية العربية حديثة؛ أنســـاقها اللســـانية وأشـــكال كتابتها، التي ســـاهمت في ثراء اللســـان العربي، وتعدد أشـــكال كتابتها التعبيرية المرتبطة بالوظيفة التواصلية أو البلاغية، وأشكال كتابتها الأدبية عامة، والسردية خاصة على نحو ما سيبين عن ذلك الوصف والتحليل لاحقا.

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال، تقديم أ. د. محسن جاسم الموسوي، دار الأمين القاهرة، 2001، ص/76

[2] ـ المرجع السابق، ص/ 76

[3] ـ المرجع السابق ص/ 77

2.4.3 ـــــ يختبر هذا التصور أطروحة مؤداها " أن أشكال الكتابة عامة لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة "[1] وان نشأة الأشكال السردية عامة والرواية منها، نتيجة لتراكم طبقات من القول النثري المُهَيئ لبروز نثرية من القول المرسل، تؤدي تراكماتها النثرية إلى ظهور نثرية أدبية محققة لجماليات الخطاب السردي. فالأنواع الأدبية بأشكالها في تاريخ الأمم والحضارات- من هذا المنظور- مرتبطة في منابت قولها ومحافل تعبيرها بلغات هذه الأمم وثقافتها وحضاراتها، فهي المعبرة عن " الاجتماعي" فيها والمكثفة " للثقافي" منها. فالإنسان إنما وجد واختلفت حياته عن حياة الحيوانات الأخرى، حينما تكلم وعبر عن أحاسيسه وأفكاره وعلاقته بالآخر، فهو كائن اجتماعي لأنه عبر عن " الاجتماعي " بلغته وخطابه، ولذا فـ" اللغوي"ـ الذي منه تنشأ الأشكال وفيه تنغرس منابت قولها سابق على " الاجتماعي " في حياة الإنسان، عند أصحاب فلسفة اللغة ونظريات الخطاب، ووجوده مرتبط باللغة والفكر، لأنه حيوان ناطق بلغته موجود بفكره (أنا أفكر إذن أنا موجود). هذا الاهتمام المركزي بـ"اللغوي" في دراسة " الثقافي" عامة والأدبي منه خاصة، نجده عند المنظرين لفلسفات الأشكال الأدبية ومنظري الخطاب الأدبي في اهتمامهم بالمستويات العليا من الكلام، فـ"هيدغرد" اعتبر أن الشعر هو مبتدأ الكلام الأدبي، والإنسان عنده تكلم أول ما تكلم بالشعر، وخالفه " بول ريكور"[2] في ذلك عندما أعتبر أن الإنسان أول ما تكلم تكلم بالسرد، لأنه حكي عن نفسه وعن الآخر.

النثرية وظهور الأشكال: التعبيرية والأدبية.

5.3. والذي يبدو لنا أن ظهور الأنواع والأشكال الأدبية عامة والسردية منها خاصة، في مجتمع من المجتمعات وثقافة من الثقافات ينبغي أن يبحث عنه، في محافل لغة تلك المجتمعات ومستويات تطويعها وطبقات قولها، المعبرة عن "الاجتماعي" والمكثفة " للثقافي"، ففي سياق تطويع كل لغة، وتجربة تطوير أدائها عبر مستويات ثلاثة، هي المستوى التواصلي والمستوى البلاغي والمستوى الأدبي، يبرز في كل مستوى من هذه المستويات نثر مرسل من القول التواصلي الفاره والبلاغي البليغ والأدبي الجميل. ويؤدي تراكم هذا النثر المرسل في المحافل النشطة ذات التقاليد اللغوية الراسخة في اللسان إلى بروز نثرية من القول في كل مستوى من المستويات الثلاثة، تتطور في مسارها اللغوي

---

[1] محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، تقديم محسن جاسم الموسوي، دار الأمين، القاهرة 2001، ص/ 74

[2] - بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، مقال "الحياة بحث عن السرد"، ترجمة وتقديم، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، 1999 ص/43

وتتدرج في تشكل خطابها من نثرية تواصلية إلي نثرية بلاغية فنثرية أدبية، مشكلة بذلك طبقات من القول يتفاوت المتكلمون فيها، تفاوتهم في الحذق اللغوي والكفاءة البلاغية والمقدرة الإبداعية.

1.5.3 ـ ففي النثرية التواصلية المنتجة للنثر المرسل، المعبر عن خطاب الذات يتفاوت المتكلمون في حذقهم للغة وقدرتهم التعبيرية علي أن يعبروا عن حاجاتهم التواصلية النفعية، فتُؤدي الرسالة، في هذا المقام، إحدى الوظائف النفعية الخمس للخطاب التي بينها رومان ياكوبسون في نموذجه التواصلي[1]، وفي هذا المستوي من التطويع تنشأ طبقة من الكلام يتفاوت فيها المتكلمون في قدرتهم على التعبيري عن الذاتي والسيري والاجتماعي، وفي تمكنهم من حذق عبقرية اللغة والتصرف في طرائق ترتيب الكلام، وفيها يبرز المتكلمون الحاذقون الماهرون في التعبير، وبقدر اتساع دائرة كلام هؤلاء في مجتمع اللغة، تظهر نثرية تواصل نشطة ومؤنسة، يحس فيها المتكلمون المهرة بجمال التصرف في التركيب ومتعة التواصل.

2.5.3. ـــ وبتجذر تطويع اللسان في هذا المستوي من الأداء اللغوي تنبت على هذه الطبقة من القول طبقة ثانية من الكلام البليغ، مولدة لنثرية بلاغية، منتجة للنثر البليغ، الحامل لخطابات المجتمع والثقافة، المعبر عن التواصل الاجتماعي، وفيها يتفاوت "المتكلمون الكبار" قياسا علي الناخبين الكبار في كفاءتهم البلاغية في التعبير عن خطابات المجتمع بطرائق من الإبانة ومستويات من التعبير البليغ المطابق لمقتضيات أحول الناس في تواصلهم الاجتماعي، وفيها تتسع دائرة القول البليغ وتتمايز خطابات المتكلمين البلغاء في حواضن أدائهم النشط للغة، كالصحافة والمحاماة والقضاء والسياسة والتدريس غيرها من مقامات القول المرتجل والمكتوب المتعددة، فيبرز في المحافل اللغوية متكلمون نماذج يحظون بسلطان البيان وسلطة الحجاج، يحضرون في أذهان المتكلمين المهرة من أصحاب النثرية التواصلية باعتبارهم القدوة والنموذج في البلاغة والحجاج، ويظهرون في قوائم المتكلمين الكبار لمجتمع اللغة المؤدين لسلاسل القول البليغ، المعتمدين في سجلات مجامع اللغة أسانيدَ في اللغة وسلطَ في أداء الخطاب.

3.5.3. ـ وباحتضان محافل اللغة لهذا المستوي الثاني من التطويع للغة تنبت علي هذه الطبقة من القول طبقة ثالثة من الكلام الجميل، مولدة لنثرية أدبية منتجة للنثر الأدبي الحاضن للأنواع الأدبية (الشعر/السرد/المسرح)، تستمد منابت قولها من الطبقتين التواصلية والبلاغية، وتمثل تراكماتها الطبقة العليا من التطويع الأدبي للغة المولدة لخطابات الأدب، وفيها يتفاوت المبدعون في مدارج شعرية القول الأدبي المحققة لمآتي حسن الكلام ومستويات الإمتاع والأنس فيه، وفي مراقي المعاني

---

[1] ـ رومان ياكوبسون: قضايا الشعرية: ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ص/33

الأدبية المجلية لطرائق تكثيف "الأدبي" ومصادر دلالاته في خلق الدهشة وكسر آفاق التلقي. وفي هذا المستوى من اللغة العليا[1] من الكلام، يأخذ المبدعون منازلهم في مقامات الإبداع، ومواقعهم في منابر البوح الأدبي، بحسب تمكين ألسنتهم من سنن القول الأدبي المتجذر في أنساق عبقرية اللغة المنتجة للخطاب، والمتأصـــل في تراث القول الأدبي المرتبط بالنص، ومن حذق لجماليات ألفتهم لهذا السنن وأنسهم لتلقيه، ومن قدرتهم على الخلق والإبداع. فيتموقعون بذلك في مدارج شعريات القول وســـلالم الإبداع، منتجين لخطاب أدبي، قَصْـــدِيَّةُ القَوْلِ فيه غير نفعية هذه المرة كما في الطبقين الســابقين، محققة للوظيفة الســادســة من وظائف النموذج التواصــلي لرومان ياكوبســون (الوظيفة الشعرية) التي يصبح معها القول الأدبي (الخطاب) غير منته: لأنه لا يَنْفَدُ بمعرفة قصدية قوله، كما يحصل في الوظائف النفعية الخمس الأخرى، فكل متلق يجد حظه من المعني ونصـيبه من التأويل ويبقي بعده قابلا لان يعطي معنا آخر ويحتمل تأويلا آخر. ويصـير معها القول الأدبي **خطاب مستقلا** عن المؤلف لا سلطان له عليه، ممتدا عبر الزمن يحيي بالقراءة والتلقي.

1.3.5.3ـــ وفي هذه الطبقة من القول تنفتح دائرة القول الأدبي على عوالم من الإبداع، صيغ أدائه التعبيري متنوعة، تضع المبدع بين خيار **الاقتصاد في القول** والاشتغال باللغة (نوع الشعر) أو خيار **الإفاضة في القول** بنوعيه: النوع المحقق لأدبية القول المسرود الممتع للسامع والمؤنس القارئ (السرد)، وسلطة الخطاب فيه للأذن، والنوع المحقق لأدبية القول المعروض الممتع للمشاهد والمبهج للمتفرج (المسرح) وسلطة الخطاب فيه للعين. وفي هذه الطبقة من اللغة العليا يبرز في المحافل الأدبية مبدعون شعراء وأدباء مشهورون بجماليات من قول المتفرد ودلالتيات من القصد البكر، تخلق سنن من القول الأدبي، تثير دروب الإبداع وتعمق مداركه، وتوسع من مسالك الكتابة ومساحتها، وتجدد دماء المشتغلين بها. وبها تصنف نصوص هؤلاء في اتجاهات من الإبداع الأدبي ما تلبث أن تصبح في محافل اللغة وحواضن الثقافة محجة من محجات الإبداع يؤمها المبدعون، فتصبح أسماؤهم محل تداول نشط في الأوساط الثقافية، وتشغل نصوصهم حيزا كبيرا من ذاكرة التداول الأدبي للمبدعين، فيحظون في البيئات العلمية بمساحات واسعة من الدرس والبحث، يدخل بها هؤلاء المبدعون دوائر التداول النقدي والعلمي بالجامعة وحواضنها الثقافية.

4.5.3. ـ هذه الطبقات الثلاث من القول: الدنيا التواصلية والوسطى البلاغية والعليا الأدبية، بأنواع نثرها وبنثرياتها الممكنة العديدة والمتنوعة، هي التي ولدت عبر الزمن في ثقافات الأمم القديمة والحديثة، والثقافة العربية الإسلامية من بينها، الأنواع التعبيرية بأشكالها النطقية والكتابية، والأنواع

---

[1] ـ جان كوهن: اللغة العليا: النظرية الشعرية، ترجمة، أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1995

الأدبية بأشكال كتابتها المختلفة، فكان ظهورها نتيجة تحولات لغوية شهدتها المحافل اللغوية لهذه الثقافات، وعرفتها تراكمات طبقات كلامها بنثريتها الممكنة ذات الأنساق اللسانية المتعددة والمتنوعة. فظهرت هذه الأشكال في المجتمعات ذات الكثافة النطقية النشطة والكتابة الخطابية البليغة والأدبية البديعة. فكان بذلك ظهور هذه الأشكال في ثقافات وآداب الأمم نتيجة لفعل التراكمات النثرية لطبقات الكلام، الناشئة عن الخبرة اللغوية واللسانية في تطويع اللغة وتعبيرها عن "الاجتماعي" لقصديات تواصلية وبلاغية وأدبية، وبروز الطبقة العليا من القول من هذه الطبقات المولدة للنثرية أدبية، وليس نتيجة لفعل التراكم الاجتماعي وتراكب الطبقات المجتمع وبروز الطبقة الوسطي منها المؤدية لظهور الرواية، على نحو ما يقدمه منظور السوسيولوجيا الأدب المجسد في أطروحة لوسيان كولدمان ذات المرتكز البنيوي التكويني.

هيمنة النثرية وظهور أشكال الكتابة: التعبيرية والأدبية.

6.3.ـ والذي عليه سند القول هنا، أن الأشكال التعبيرية عامة والأدبية منها خاصة، لا تظهر في مجتمع من مجتمعات اللغة والتواصل إلا في ظل هيمنة نثرية من القول في طبقة من طبقات الكلام المولدة للأشكال، وهو ما أدي في تاريخ ثقافة وآداب الأمم إلي ظهور أشكال تعبيرية لكل طبقة من طبقات القول خبرتها اللغة، وكان لكل مجتمع لغة حظه من هذه الأشكال التعبيرية، المعززة لطاقته التعبيرية (الحكم والأمثال) والمولدة لقوة خطابه البلاغي(الخطب والكتابة الصحفية) والمنتجة لجمالية أشكال أنواعه الأدبية (القصيد، الرواية، المسرحية).

1.6.3. ـــــ فقد أدت التراكمات النثرية في الطبقة الدنيا من القول في محافل التواصل في تراث الأمم ـــ إلي ظهور شكلين تعبيريين هما شكل " الحكمة أو الحِكَم " و" المثل أو الأمْثَال"، فكلاهما مثل شكلا تعبيريا لفظيا مدونا دون توقيع، صيغت من خلاله تجربة حياتية على لسان متكلم عام فاره حاذق، صاغ تجربة الحياة فاستقر معه الكلام "حكمة " تقال أو "مثلا " يضرب.

2.6.3. ـ وأدت التراكمات في الطبقة اللغوية الوسطى من الكلام إلي ظهور أشكال كتابة نثرية ذات كثافة بلاغية وحجاجية متفاوتة، هي "الرسالة " و"الخطبة" وغيرهما من أشكال الكتابة النثرية البلاغية القديمة، و" المقالة" و" الخاطرة" وغيرهما من أشكال الكتابة الصحفية الحديثة، التي اقتضتها مقامات الكتابة الصحفية، وأنتجتها نثريات البلاغة الحديثة، ك " الافتتاحية" و"العمود" و" الخبر" و"الحديث"و" المقابلة" و"التغريدة" و"التعليق"، وفرضتها أوضاع التخاطب الجديد عبر وسائل النشر وقنوات البث ووسائط التواصل الاجتماعي، التي خلقت في العقد الأول من هذا القرن حيوية في الاتصال والتواصل أعطت الكلام دَفقه، وللخطاب تَدَفُّقه، جعلا القول في المستويين التواصلي والبلاغي النفعيين، نشطا مولدا لنثريات من القول فصيحة وبليغة، حاملة لخطابات اجتماعية متنوعة

ومتعددة، لما يمكن أن نسميه ب" المتكلمين كبار" قياسا علي الناخبين الكبار، موقعين علي هذه الأشكال النثرية في مساحات المقروء، ومؤدين لها في مقامات المسموع.

3.6.3. ـــــ وأدت التراكمات في الطبقة العليا إلي ظهور أنواع أدبية بأشكال كتابة متعددة، ذات كثافة شعرية متنوعة: منها الأشكال الشعرية أو شكل الشعر (قصيدة العمود، القصيدة الحرة، وقصيدة النثر) والأشكال السردية أو شكل السرد (الأشكال السردية التراثية، القصة القصيرة، والرواية) والأشكال المسرحية أو شكل المسرح (الأشكال المسرحية التراثية، المسرحية الحديثة)، وهي أنواع أدبية اقتضتها مقامات كتابة أدبية، وليدة هيمنة نثرية أدبية حاملة لخطابات إبداعية لشعراء وأدباء ومسرحيين، مؤلفين الأعمال أدبية تتفاوت في مدارج شعريات القول و مراقي قصديات الدلالة المشكلة لجماليات القول الأدبي، والمحققة لما به يكون القول أدبا، ولما به يكون النص نصا أدبيا، ولما به تكون الأشكال التعبيرية أشكالا أدبية.

تركيب: ظهور الشكل السردي بروز لنثرية عليا من القول وانحسار لنثرية أخري.

1.4 ــ نخلص مما سبق إلي أن ظهور الأشكال السردية عامة، والرواية منها خاصة، يأتي وليد تراكم طبقات القول المعبرة عن "الاجتماعي" والمجلية "للثقافي"، في المحافل اللغوية الحاضنة لها في مجتمع من المجتمعات، وليس نتاجا لتحول في طبقات المجتمع، الؤدي إلي بروز الطبقة الوسطي منها، باعتبارها الحاملة للوعي، والمعبرة عن الرؤية للعالم، على نحو ما أسست عليه نظرية سوسيولوجيا الأدب أطروحتها النقدية، في تفسيرها لظهور الرواية في المجتمعات الحديثة، بل هي نتيجة لتحولات لغوية تعرفها المحافل اللغوية والحواضن التواصلية لمجتمع من المجتمعات أثناء تعبيرها عن الاجتماعي والثقافي لذلك المجتمع. ولذا اعتبرت السرديات التاريخية المحافل اللغوية الحواضن اللغوية لمنابت الخطابات الأدبية، التي ينبغي الرجوع إليها للبحث عن العوامل التي تؤدي إلى ظهورها. فالبحث عن ظهور أي شكل سردي (الرواية هنا)، في أدب من الآداب هو بحث في لحظة ما قبل ظهوره، بحث في التحولات النثرية المولدة لطبقات النثر، التي من منابت قولها ينشأ خطاب السرد وعنها تتولد أشكاله السردية.

1.1.4 ــ فتحولات المجتمع وتغير الوعي فيه، هي تحولات في اللغة والخطاب والخبرة اللسانية الحاملة للمفكر فيه والمعبر عنه، وتغيرات في طبقات القول ونثرياتها، قبل أن تكون تحولات في طبقات المجتمع، فأوضاع التخاطب في المجتمعات، هي التي تنشأ عنها أدبية قولها و"نظرية كلامها" بتجلياتها وأشكالها المختلف. وظهور الرواية في مجتمع من المجتمعات ليس حدثا أدبيا اجتماعيا مرتبطا بظهور الطبقة الوسطى وقدرتها على الفعل، على نحو ما قال بذلك أصحاب سوسيولوجيا

الأدب - وإنما هو حدث أدبي لغوي مرتبط بظهور الطبقة العليا من الكلام فيه، وقدرتها على إنتاج نثرية أدبية، مولدة لجماليات من القول الجميل، مناهضة لبلاغة القول البليغ في طبقة الكلام الوسطى، ومتعالية على مهارة القول الفاره في طبقة الكلام الدنيا. ولذلك عدت الرواية، شكلا أدبيا ينتجه خطاب سردي، ينشأ في محافل تواصلية وحواضن لغوية، تولده أوضاعُ تخاطبٍ في طبقات قول ثلاثة (تواصلية، بلاغية، وأدبية). وهي طبقات ذات نثريات متعددة ومتنوعة منتجة لأشكال تعبيرية تواصلية (الحكم، الأمثال) وأشكال تعبيرية بلاغية (الخطبة، المقالة، الخاطرة، الحديث، الافتتاحية ...) وأشكال أدبية (القصيد، الرواية، المسرحية) محققة لشعرية الأنواع أدبية (الشعر، السرد، والمسرح) في تنوعها الأدبي وتعدد صيغ تحققها.